الاغتراب في الشعر الليبي الحديث

محمد عبدالصادق محمد
قسم اللغة العربية /كلية اللغات/جامعة الزيتونة

تعد مشكلة الاغتراب حالة متميزة للإنسان في العصر الحديث؛ ذلك لأنه عصر يعكس أزمات سياسية واجتماعية وفكرية وأخلاقية؛ ومن جهة أخرى شهد هذا العصر شعور الإنسان بإنجازاته الكبيرة التي سببت له القلق على مصيره والخوف من سرعة التغيير على شتى الأصعدة ؛ لذلك أصبح الأدب في هذا الواقع لا يثير فينا الاستقرار؛ بالقدر الذي يبث فينا مشاعر القلق والتوتر ويزرع فينا نوازع التساؤل؛ وذلك لأنه أدب لا ينتمي إلى عالم مسترخ؛ ومن هنا برزت ظاهرة الاغتراب لتجسد واقع إنسان هذا العصر .

وإشارتنا إلى أن ظاهرة الاغتراب هي من مميزات إنسان العصر الحديث لا ينفي وجودها في ماضي القرون ؛ فنحن نجد هذه الظاهرة ماثلة في أشعار الجاهلية ؛ففي الوقوف على الاطلال – مثلا - غربة عن الزمن ؛وحرمان من الحبيبة ؛ وحنين إلى ماض جميل ؛وخوف من مستقبل مجهول ؛ وفي شعر الصعاليك غربة عن قيم المجتمع الجاهلي، وفي ليل المهلهل وامرئ القيس والنابغة الدبياني اغتراب عن الزمن العام إلى زمن نفسي خاص ؛ يعيش فيه الشاعر وحده ؛ كما نجد الاغتراب أيضا عند عنترة العبسي بسبب لونه ونسبه لأمه الأمة الحبشية، ففقد الإنسان لذاته يعمق شعور الثورة

لديه ، وها هو الشاعر بشر بن أبي خازم يشعر بالاغتراب حين أحس بدنو أجله بعد أن أصيب بسهم فيقول :(ديوان بشر ،1995م،ص74-75)

فمن يك سائلا عن بيت بشر فإن له بجنب الردة بابا

ثوى في ملحد لابد منه كفى بالموت نايا واغترابا

وتزداد وطأة الاغتراب حين يداهم الموت الإنسان في غير بلده؛ فتجتمع عليه غربتان؛ غربة بعد الموت؛ وغربة الموت بعيداً عن الوطن؛ ويقول أمرؤ القيس :(ديوان امري القيس،ط4،د.ت،ص375)

أجارتنا أن المزار قريب وأني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

وهناك اغتراب من نوع آخر، هو الشعور بالغربة من الموت، والتمسك بالحياة، ويمكن أن يكون هذا الاغتراب في تضاد (الحياة- الموت)، أي مادام كل شيء للفناء، وأن الحياة لابد زائلة، ومادام الخلود غير ممكن فإن الغربة قائمة مادامت المنية دائمة، ولهذا نجد منَ الشعراء من ينطلق في الحياة بما ملكت يداه، وبهذا الصدد قال طرفةُ بن العبد:(ديوان طرفة ابن العبد،2002،ص25)

فإنْ كنتَ لا تستطيع دَفْعَ مَنيّتي فَذَرْني أبادِرْها بما ملكتْ يَدي

فلولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ حاجةِ الفتى وَجَدِّكَ لم أَحفلْ متى قامَ عُودَّي

فمنهن سبقي العاذلاتِ بشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ متى ماتُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ

وكرّي إذا نادى المضاف مُحَنَّبَاً كِسيدِ الغَضا نَبَّهتْهُ المَتَورِدِ

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ببهكنة تحتَ الطِّرافِ الممددِ

ونجد ملامح الاغتراب في شعرنا العباسي أيضا عند أبي فراس الحمداني ؛وذلك بسبب مرارة الأسر وعذابات الشوق والحب، وعند المتنبي في عقدة تضخم الذات؛ وفي الصراع بين طرفين متناقضين؛ الأول: أن الشاعر ينشد المثال في قومه وعصره من جهة؛ وطموحاته وعبقريته من جهة أخرى.

والثاني: أن الواقع يخيب ظنه في ذلك فهو يسعى ويخفق ويكثر اغترابه في مقدمات قصائده؛ فهو يشعر – مثلاً- بسخف ما وصلت إليه الحضارة العربية في عصره؛ حيث يقول: (شرح ديوان المتنبي،1992م،ج4،ص250)

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سلف الأمم

أتى الزمان بنوه في شيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

وإذا ما استثنينا بعض مقطعات المعري في اللزوميات؛ فإنه يمكننا القول بأن موضوع الاغتراب في القصيدة العربية القديمة كان يقتصر على بعض الأبيات فيها أما القصيدة المعاصرة فإن الاغتراب فيها غدا موضوعا قائما بذاته؛ بل إنه يعد من أهم موضوعاتها كما نجد عند الشاعر بدر شاكر السياب في

(حفار القبور) و(المومس العمياء) والشاعر خليل حاوي في (لعازر1962) وأدونيس في (الصقر) وعبد الوهاب البياتي في (الذي يأتي ولا يأتي) ويعلل الدكتور خليل موسى عوامل انتشار موضوع الاغتراب في القصيدة المعاصرة فيقول: (وتعود عوامل انتشار هذا الموضوع في القصيدة المعاصرة إلى ارتفاع نغمة الحزن العام في شعرنا نتيجة إحباطات الإنسان العربي المتواصلة ؛ وبخاصة نكبة فلسطين وما رافقها من خيبة وألم ورفض لكل ما هو قائم وكما تعود إلى ازدياد الوعي في القرن الماضي والاتصال بالغرب والاطلاع على الفروقات بين مجتمعنا والمجتمعات الأخرى ؛ وقد كان الشعراء يرون تدهور

مجتمعنا وسيطرة القيم والعادات الاستهلاكية الوافدة ؛ وتقليد الغرب في بعض سلبياته وتخلي إنساننا تدريجياً عن قيمه وعاداته الأصيلة.(موسى ،2003م،ص156)

فثمة حالة راهنة أفرزها العصر الحديث، أحدثت اختلالاً في القيم والتصورات، كما أدت إلى ظهور حالات من الاغتراب، (والتي تمثلت في تجربة الانسلاخ والقطيعة ومعاناة الفصم واللاانتماء، شعوراً و وعياً؛ لأن القطيعة والضياع لا يحدثان في الفراغ، بل حضور الاغتراب ينشأ من استلاب الوعي والواقع عبر صراع يمتد من اللغة إلى الاجتماع والتاريخ)(الدجيلي،دت،ج1،ص141).

أنواع الاغتراب:

وقبل الخوض في أنواع الاغتراب لا مناص من تعريفه لغة فهو: البعد، يقال: اغترب عني. ومنه الاغتراب عن الوطن وهو الابتعاد(الحميري،1999م،ج8،ص49-40)

أولاً- الاغتراب السياسي:

لاريب أن الاستبداد السياسي هو مبعث هذا النوع من الاغتراب؛ فكلما ازداد قمع السلطة الحاكمة لحرية الفرد ازداد اغترابا؛ وبخاصة إذا كان شاعراً؛ ذلك لأن الشاعر ذو حسن مرهف ، ووجدان شفيف لا يستطيع إلا أن يتكلم عما يعتمل في خاطره أو يجيش في صدره؛ ويرى فاضل العزاوي أن الكتّاب في الثقافة العربية قسمان فيقول: (ما يحدث داخل الثقافة العربية يكاد يكون فضيحة؛ حيث لا يملك الكاتب الحقيقي حتى فمه؛ فهو إما فم للسلطة أو فم ملغوم بالديناميت. (العزاوي ،1991م،ص5)

والقاري لمدونة شعراء القطر الليبي يجد الاغتراب السياسي واضحاً في أشعارهم؛ فنحن نجد للشاعر أحمد رفيق هذه الأبيات(ديوان أحمد رفيق، الفترة الثالثة،ص5-6).

عجبت للطالع المنحوس يتبعني إن ذهبت أتاني بالإساءات

ما جئت مملكة إلا تملكني خوف وأدركني حيف الحكومات

خلقت حرا فما فوق البسيطة من إعنو له غير جبار السماوات

كرهت إن يتولى إمرتي بشر أو أن أكون أميراً في الإمارات

لم أدرِ هل تلك مني الفوضوية أم هي الممالك جارت في السياسات

فالشاعر في هذا المقبوس يشعر بالحيرة؛ لأنه لا يدري لماذا يتملكه الخوف؛ ويطاله ظلم السلطات الحاكمة على الرغم من أنه لا يقول إلا ما تمليه عليه حريته البشرية؛ ويتساءل عن سبب ذلك؛ هل هي فوضويته أم هو جور الحكام على الأحرار الناطقين؟ وتبرز ظاهرة الاغتراب السياسي لدى الشعراء واضحة جلية إبان الحكم الملكي؛ حيث انتشر الفقر وكثرت الفروق الاجتماعية بين الناس وسيطر الغرباء على ثروات البلاد؛ وهذا الشاعر خالد زغبيه يقول شاكياً اغترابه.(ديوان زغبية ،1978م،ص60-61)

- يا رفيقي
- كلما أطلقت آهة
- من صميم القلب حرة
- آهة تحمل في طياتها كل انطلاقي
- وانعتاقي
- من قيود الصنم الاخرس حرة
- يا رفيقي
- كلما أرسلت زفرة

- من حنايا الصدر حرة
- مثل جمرة
- ومضت؛ تنداح في الأجواء؛ حرة
- زفرة؛ أحشد فيها كل حقدي وانتقامي
- من نواطير الظلام
- خالها قيصر جنحة
- بل جريمة
- وأنبرى يحصي على زفراتي
- يترصد
- حركاتي.. سكناتي؛ ويعدد خلجاتي
- ومضى يرسل في أعقابها كل غراب
- أو ركاماً من ضباب

الشاعر هو الكلمة؛ فاذا حاول أحد كبتها او خنقها؛ فإنما هو يكبت الشاعر ويخنقه؛ وهذا ما تفعله السلطة حينما تحاول أن تسكت من يكشف سلبياتها ويظهر سوءاتها؛ لذا نحس أن الشاعر في هذا المقبوس يعاني آهات الجهر بالكلمة لأن (الصنم الأخرس) و (نواطير الظلام) لا تسمح حتى بالآهات أو بالزفرات ؛ بل هي تحصيها؛ وتترصد حركاته وسكناته؛ بل وتتعدد خلجاته وكل هذا يجعل الشاعر يعيش في قهر واغتراب ويشعر بأنه سجين الرأي؛ حبيس اللسان. وهذا القمع السياسي هو الذي أوجد ما يسمى (الانتهازية السياسية) وهذا ما أشار إليه الشاعر علي الفزاني عندما قال: (الأعمال الشعرية الكاملة ،المجموعة الأولى ،دت،ص197)

صلبوا قلبي المسيحا

قتلوا الحلاج في ذات عشية

لو أنا أزني بحرة وسيوفي

لأتوني في فراشي بصبية

ومضى الليل شراباً وعناقاً

وانتهى أمر القضية

الشاعر هنا ينفي عن نفسه صفة (الانتهازية السياسية) ويرى أن الموت أمر هين في سبيل المبادئ العادلة ، وأنه ليس أول من قتل في سبيل الكلمة والموقف؛ وبذلك فهو لا يبالي أن يكون في الطرف الآخر نقيضاً للسلطة الحاكمة التي يصورها فاجرة ترهب خصومها ليصمتوا ؛ أو تغويهم ليسقطوا في مستنقع الرذيلة والانحراف عن المبدأ ؛ ويتخلوا عن واجبهم والتزامهم الخلقي.

ويتساءل الشاعر رجب الماجري عن السبب الذي يلجم لأجله الكلمة في أرض العرب فيقول متحدثاً عن الكلمة(ديوان الماجري ،ط2005،1م،ص228)

كانت لوجه الحق بين الناس في الأرض سمه

ما بالها في أرضنا كالحر منا ملجمة

تجيش في نفوسنا تتأثر مضطرمة

حتى إذا ما لامست شفاهنا محتشمة

ماتت كما مات الحياء في وجوه مجرمة

ثانياً-الاغتراب النفسي:

الاغتراب النفسي هو: - افتقاد الشعور بالذات و بالعفوية والفردية؛ والتباعد بين وضع المرء الفعلي وطبيعته الجوهرية (شاخت،1980م،ص198)

وفي هذا النوع من الاغتراب تفقد الشخصية ذاتها وتتحول إلى شيء؛ والتشيؤ هو قمة من قمم الاغتراب إذ ليس أدل على الاغتراب من أن يشعر الإنسان بنفسه وكأنه شيء ؛ أي أنه مجرد من الفاعلية والحركة.

ومن الشعراء الليبيين الذين نلمس لديهم هذا النوع من الاغتراب؛ الشاعر على الرقيعي حيث رأى بأن أشعاره لم تستطع أن توقظ أولئك النائمين، ولا أن تبعث فيهم روح النهوض؛ مما ولد لديه شعوراً بالعجز وعدم القدرة على الفاعلية والحركة؛ أي ولد لديه شعوراً بالاغتراب النفسي لذلك نجده يقول0ديوان علي الرقيعي ،أشواق صغيرة، دت،ص111)

ما الذي تخصبه الأمطار في الأرض البوار

غير شوك العوسج الملعون جدب القفار

فالشاعر هنا يشبه أشعاره بالأمطار التي تنزل على أرض قفرة؛ وبذلك فهي لا تنبت طيباً ولا تمر صالحاً لكنها تؤكد جدبية المكان وتزيده إقفاراُ؛ وهذا يذكرنا بقول أحمد رفيق المهدوي:(ديوان أحمد رفيق الفترتان الرابعة والأخيرة ،ط1،ص266)

فقلت لهم يا طالما قد دعوتكم فلم يك منكم للدعاء قبول

وحركت نواماُ فكنت كأنني أزيد بهزي نومكم فيطول

ونجد الاغتراب النفسي أيضا عند الشاعر على الفزاني؛ ففي قصيدته (بكائية العنقاء) يستهل الشاعر موضوعه بالسؤال عن هذا الطائر الخرافي الأسطوري فيقول:(ديوان علي الفزاني ،دت ،المجموعة الأولى،ص289)

ألف عام لم أجدها في كتاب الموت عنقاء الصحاري النائيات

أسأل الآرام في البراري ... والفيافي والطيور العائدات

ضائعاً كنت وكانت تختفي في الثوب مني والحنايا والقرون

آه يا تعس الحياة

ها أنا عربي على دربي؛ وسيفي لم يعد سيف كماة

فالشاعر هنا يتساءل عن حقيقة هذا الطائر الأسطوري؛ ويبحث عنه؛ ومن خلال البحث عن هذا الخيال يمهد الشاعر الطريق لما يرغب طرحه من معاني وأفكار تاليه فيقول:

آه غنت مثلما شاءت قيان الخلفاء

فلهونا؛ ولعبنا؛ ورحلنا؛ ورثانا الشعراء

ثم ماذا؟ يا عصور القهر ماذا؟ أين القصر المضاء

سلب التاريخ منا كل شيء؛ كل مجد العظماء

(طارق) مات وحيداً سراديب البغايا وسجون الأدنياء

فلمن يشدو كنار العصر ويحى ويقول الفصحاء

كل ما يلقي هراء

الشاعر في هذا المقبوس يوظف الأسطورة (العنقاء) ويغوص في أعماق الماضي لينطلق من خلاله إلى الحاضر بكل الآمه ومآسيه ليعبر عن اغترابه النفسي في عالمه الذي يعيش فيه؛ ذلك العالم الذي سيطرت فيه الأنانية والانتهازية فصبغت الحياة بإهاب سوداوي مخيف؛ وجعلت الحياة جافه مقفرة والشاعر هنا يعود إلى الماضي البعيد منذ أن بدأ العرب يتخلون عن هدفهم السامي في نشر الحق وقيمه وانشغلت قصور الخلفاء باللهو والإسراف؛ حتى ضاع المجد الذي بناه الأوائل؛ في لحظة شهوة

لم تلبث أن تلاشت. ويستعين الشاعر بالرمز التاريخي (طارق بن زياد) ذلك البطل الذي جاز البحر ليبني حضارة عريقة استمرت قروناً طويلة و يخبرنا بأنه قد (مات و حيداً) في (سراديب البغايا و سجون الأدنياء) و بذلك فهو (غريب) كغربة الشاعر بين شعراء هذا العصر الذين يصفهم الببغاوات و أشعارهم بالهراء ،والشاعر هنا يشكو أقفار الزمان و المكان من البطل المنقذ و الشاعر المخلص؛ ولذلك نحس بأنه يشعر باغتراب نفسي عميق جعله يسخر من أولئك الشعراء المداحين؛ و ليس ثمة بطل يمدح ف (كل ما يلقي هراء) .

ونجد الشاعر علي الرقيعي يعبر عن اغترابه النفسي ويأسه المستحكم؛ حتى يتساوى عنده المتكلم ومن يخاطب والرائد وأهله فيقول متسائلاً (ديوان علي الرقيعي،دت،ص112).

من ترى يلهب ومض الشوق يا جيل القدر

في ربيع الأغنية

ويسد الدرب في وجه الرياح الهمجية

آه يا جيل القناديل العطاش المطفأة

أنني أشعر بالقيء؛ وإني أختنق

منكم وأشعر بالعقم ... نشيش العقم فينا

فرخت أنتاه .... مازلنا على درب الحيارى

نتوارى

في مهب الريح في فقر الصحاري

نمضغ الصمت ويأس الميتينا

ثالثاً- الاغتراب الفكري :

من الشعراء الذين عاشوا الاغتراب الفكري علي الرقيعي الذي ثار على بعض ما هو سائد في مجتمعه من مظاهر تحكمها تقاليد صارمة؛ فنجده يسخر ممن بالغوا في إخفاء المرأة واحتجابها فيقول : (ديوان علي الرقيعي ،أشواق صغيرة،ص53).

كبلوها

حجبوها

لفعوها

واحرصوا ... لا تكشفوها

وامنعوا النسمة أن تسطو عليها

لا تزيحوا سترها عن ناظريها

فهي من ظلمة كهف وإليها...

لاريب أن الشاعر هنا؛ ومن خلال أفعال الأمر المتعاقبة؛ وما رافقها من نواهي قد خرج عن مقتضي الظاهر بلاغياً؛ وذلك بقصد السخرية التي تتضمن معنى الدعوة إلى تحرير المرأة؛ ولا نعتقد أن الشاعر هنا يدعو إلى سفور المرأة أو إلى العري أو إلى الإباحية وإنما هو في اعتقادنا يدعو إلى نبذ الغلو والمبالغة في التضييق على المرأة فالمعروف لدى حتى العامة من الناس أن الحجاب أمر إلهي لا علاقة له بالتقاليد. ومن الأشعار التي يمكن أن يدخل أصحابها ضمن دائرة الاغتراب الفكري تلك التي

تشير إلى تغير الظروف الفكرية و انقلاب الموازين؛ حيث يقدم الجاهل الهمل و يقصي العاقل الفطن على نحو ما نجد في قول أحمد الفقيه حسن إبان الاحتلال الإيطالي:(ديوان أحمد الفقيه،دت،ص67).

أبا لعقل يشقي الفتى العاقل وينعم في جهله الجاهل

ويرتفع الوغد بين الورى وينخفض السيد الفاضل

ويبدى الكمال بهذا الزمان من بيننا الناقص الخامل

وفيه تضيع حقوق الأديب وبالنقص يتهم الكامل

وكم في طرابلس الغرب من رفيع سماء فوق سافل

أما الشاعر إبراهيم الهوني فيجتمع عنده الاغتراب الفكري والاغتراب النفسي نتيجة لما رآه من تغير أخلاقي وانقلاب للموازين؛ لا يستطيع حيالها فعل أي شيء؛ يقول من قصيدة يخاطب فيها آباه أدم (ديوان ابراهيم الهوني،دت،ص38-39).

فقلت له يا والدي إن حالنا كحالة ديك في الهواء على حبل

لقد ظهرت في الأرض بعد صعودكم أقيوم كل منهم سيئ الفعل

عقول تساوت يا أبي لو رأيتها لما تعرف الشيخ المسن من الطفل

وإن غبي الناس يحترمونه وذا العقل محسوب لديهم من الغسل

يقولون هذا فاضل وابن فاضل وأفضل منهم قيمة ذكر النمل

وقالوا لنا: باشا وصاحب رفعة وأفضل من ألقابهم خادم الحقل

رؤوس على أكتافهم يحملونها وليس لهم منها انتفاع سوى الثقل

لقد مل من يبدى النصائح جاهداً ومل الذي ينهي وملَ الذي يملي

رابعاً- الاغتراب المكاني والموقف من المدينة :

لا ريب أن أول ما يحس به الريفي تجاه المدينة هو نفوره منها ؛ وذلك لما فيها من الضجيج و الازدحام ؛ الذي لم يألفه في الريف كما يشعر بالحيرة والخوف إزاء ما يرى من المستحدثات ولكن الأهم من ذلك هو افتقاده للنقاء المعنوي في المدينة ؛ وإحساسه بالحنين إلى صفاء الريف مما يولد لديه شعوراً بالاغتراب والعزلة، ويرجع الباحثون سبب كراهية الشعراء للمدينة وإظهارهم لسلبياتها إلى أسباب خارجية ؛ وأخرى تتعلق بذوات الشعراء ؛ يقول الدكتور عبد الحميد جيدة : (الأسباب تعود أولاً إلى الثقافة الغربية في مطلع القرن الثامن عشر ؛التي نادت بالعودة إلى القرية ؛ حيث الطبيعة والبراءة ترك المدينة الصناعية التي حولت الإنسان إلى آلة ؛ وقتلت عنده الروح الإنسانية)(جيدة،1986م،ص270) ثم يبين السبب المتعلق بذوات الشعراء فيقول : (إن الشعراء الذين نفروا من المدينة ولدوا في القرية و ترعرعوا في ربوعها ،وارتسمت معالمهم في ذاكرة طفولتهم، ولما ذهبوا إلى المدينة ورأوا فيها ما يخالف طبيعة القرية وعاداتها وتقاليدها استيقظ في داخلهم الحنان إلى مرابع الطفولة ؛ فهربوا من المدينة التي سحقت أرواحهم إلى القرية الهادئة الآمنة المطمئنة (المصدر نفسه،ص271)

أما الدكتور إحسان عباس فلا يميل إلى الاعتقاد بالقول بتقليد الشاعر العربي لنظيره الغربي في هذا الباب؛ ويرى أن هذا الأمر محوط بكثير من الشك (ذلك لأن المسألة لا تعدو أن تكون نسبية؛ ففي البلاد العربية مدن مهما يكون حظها من الضخامة؛ تختلف فيها طرز الحياة؛ اختلافاً غير قليل عما هو الحال في الريف) (عباس،1978م،ص112)

والواقع أن رأي الدكتور إحسان عباس وجيه وصائب؛ فمهما يكن حجم المدينة فلا ريب أن المرء يشعر فيها باختفاء بساطة الريف وافتقاد قيمه وأخلاقياته وعاداته ثم أن تعبير الشاعر عن مشاعره

وأحاسيسه لا يعني بالضرورة أنه مقلد ؛ ونحن نجد في الموروث الشعري العربي القديم بعض النصوص التي تعبر عن رفض أصحابها للحياة الحضرية؛ وتفضل عليها حياة البادية (بدوي،1986م،ص74)

من ذلك قول ميسون بنت بحدل زوج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إليَ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

خشونة عيشتي في البدر أشهى على نفسي من العيش الظريف

إن الوعي المغترب لدى الشاعر العربي المعاصر نابع من محنة ذاتية وواقع قهري ووعي بالوجود تعيس يختلف كثيراً عن معاناة الشاعر الغربي؛ فإذا كان اغتراب الإنسان الغربي وليد (انهيار حضاري ودخول تشكيلة اجتماعية واقتصادية في مأزق نابع من بنيتها ؛ حيث يحاصر الفرد من قبل المؤسسات فيشعر بالضياع وانهيار قيمه)

فإن الانسان العربي يضيف على ذلك اغتراباً من نوع آخر؛ إنه (اغتراب قهري؛ افترضه واقع رجعي ديكتاتوري؛ لا يجد فيه هناءته ولا تحقيقاً لطموحاته) (ينظر:عقاق،2001،ص216) والشعراء الليبيون كغيرهم من شعراء العرب شعروا بوطأة المدينة على أنفسهم ؛ وذلك لما تحمله من تناقضات وفروق اجتماعية وسلبيات لا تنسجم مع تطلعاتهم ومناهجهم الحياتية ؛ وهذا الشاعر لطفي عبد اللطيف يصور في إحدى قصائده من ديوانه (أكواخ الصفيح) ما رآه في مدينة طرابلس من فروق اجتماعية هائلة وعلاقات

ظالمة وذلك في أول قدوم له من الريف الى المدينة؛ حيث كان يبحث عن قريب له ليدله في متاهات المدينة؛ وإذا به يرى التناقض البيَن والاختلاف الواضحين حياتين؛ حياة يعيشها المترفون في قصور تزدان بالأضواء وتحيط بها الحدائق والزهور؛ وحياة يعيشها البائسون الفقراء في أكواخ صفيحية

كأنها هامات القبور؛ لا تقي أصحابها شدة الزمهرير ولا حر الهجير ولا يسأل عن حالهم فيها أحد

يقول (لطفي عبداللطيف،1967م،ص21-22)

وبحث عن ذاك القريب

ليدلني ليقودني فأنا غريب

وشققت دربي نحوه بين القصور

حتى تخلى الضوء عني والمباني والزهور

ما ثم شيء من عطور

غير الصفيح وغير هامات القبور

وسألت طفلاً لاعبا بالطين عن ذاك الصديق

فأشاح وجهاً شاحباً عن لعبته

مسح اليدين بثوبه وبشعره وبجثته

وأشار للباب الحقير

ودخلت في دنيا القبور

الله ما أقساك يا ضوء الصور

مازالت الأضواء تسطع في فتور

ما همها من في الصفيح بلا مصير

للزمهرير وللهجير

الشاعر هنا يشعر بالاغتراب نتيجة لما يراه من واقع أليم ؛ إنه واقع يخبرنا بما وصلت إليه العلاقات الاجتماعية من ظلم وحيف .

ومن الشعراء الذين شعروا بالاغتراب في المدينة فصبوا عليها شظايا سخطهم وجام غضبهم الشاعر حسن محمد صالح يقول في قصيدة (العودة) (صالح ،دت،ص19-20)

جئت المدينة علني ألقى الحياة الناعمة

فإذا بها النفاق بكل وغد زاحمة

وإذا النفوس حقيرة لكنها متعاظمة

فرجعت انتهب الخطى حراً بنفسي حازمة

للريف فردوسي الحبيب ترف نفسي الباسمة

فالشاعر هنا يصف المدينة بأنها (وكر النفاق) ويرسم لنا صورة المديني بأنه (منافق – وغد – وحقير – ومتعاظم)

ولا ريب أن لنشأة الشاعر دوراً فاعلاً في صياغة هذا الموقف حيث إنه قضى شطراً من طفولته و صباه في الريف من ضواحي مدينة بنغازي (الصاري،2008م،ص229) .

وفي قصيدة (الجاحدة) نجد الشاعر أيضاً يعلن تمسكه بالريف ورفضه للمدينة وأهلها داعياً حبيبته إلى الحياة معه في الريف محاولاً إقناعها أن السعادة تكمن في العيش بين المروج والزهور وصوت الناي يقول: (صالح ،دت،ص36)

تعالي بنا نحو تلك المروج نردد أغنية الساقية

ننشق عطرا الزهور البديع ونبسم للفتنة الطاعية

ونصغي لأنات ناي بعيد يرجعها الغور والرابية

ويمضي الشاعر في دعوة محبوبته لسكنى الريف موضحاً لها صورة المدينة كما يراها؛ فهي عنده مرتع للهو واللذات والنفاق والرياء عاقداً مقارنة بين المدينة والريف يقول:

وخل المدينة في لهوها تعج بلذاتها الفانية

ومجتمعنا غارقاً في النفاق يساق ببطء إلى الهاوية

عبادته في الحياة الرياء وتقواه شعوذة باليه

وهيا إلى الريف حيث النفوس كبار وأخلاقها سامية

وهيا إلى الريف مهد الجمال ومهبط وحيي وأشعاريه

هكذا أضحت المدينة عند هذا الشاعر؛ وهكذا رأى سكانها ؛ فلا غرو بعد ذلك أن نراه يلوذ بالريف ويرى فيه النقاء والجمال والطمأنينة؛ ومن الواضح أن اغتراب الشاعر رومانسي المنطلق حيث إنه يتخذ من العودة إلى الطبيعة شعاراً له على غرار ما فعل الرواد من شعراء الرومانسية كجبران وبشارة الخوري وغيرها. ولعل شاعراً ليبيا لم يصور الاغتراب المكاني كما صوره الشاعر علي الرقيعي؛ حيث نحس بذلك الاغتراب من ألفاظه وصوره؛ ونشعر بحرارته ووطأته على الشاعر؛ لاسيما مع وجود الغرباء الذين يضاعفون ذلك الاغتراب يقول علي الرقيعي: (ديوان الرقيعي،دت،ص64) .

حبيبتي ... في سبيل العيش جئت مدينة الأضواء

بلاداً مرة الطرقات لا ترحم

على أمثالنا تقسو

بلاداً تحضن الغرباء

تميت طفولة القلب

بلا قمر شفيف الضوء في شغف عبدناه

بلا أغنية خضراء تلهج في ثناياه

بلا عينيك تبتسمان لي في وحشة الدرب

علي الرغم من هذا المنظر الخارجي الخالب (مدينة الأضواء) إلا أن المظهر لا يدل على المخبر ؛ فسرعان ما تظهر السوءات وتتكشف السلبيات المعنوية منها والحسية؛ حيث تجد هذه المدينة (لا ترحم – تقسو – تحضن الغرباء – تميت طفولة القلب) وهي كذلك (بلا قمر شفيف الضوء؛ بلا اغنية خضراء) وقد استطاع الشاعر أن يشعرنا باغترابه في هذه المدينة بما بثه من صور وما جمعه من متناقضات فمن تلك الصور (بلاداً مرة الطرقات لا ترحم) حيث استعار للطرقات (طعم المرارة) وفي ذلك إيحاء قوي بانتشار مظاهر القسوة والمشقة والعنت في أرجائها وانعكاسها على نفسية الشاعر. ومن تلك الصور أيضاً (تميت طفولة القلب) وهي كناية عن فقدان البراءة وانعدام أخلاق البر ؛ وخصال المروءة.

الخلاصة :

من خلال ما تقدم نلحظ أن الشعراء الليبيين كغيرهم من الشعراء العرب قد عانوا من الاغتراب سواء أكان سياسياً بسبب ما تعرضت له البلاد من أزمات وحروب، وبسبب القهر ، والعسف الذي عانوه ، أم كان اغتراباً نفسياً نتيجة تجارب اجتماعية خاضوها ، أم فكرياً، أم مكانياً في إطار تقدم الحياة وتحول الإنسان إلى في المدن خاصة بعد اكتشاف النفط.

إن الشعراء هم في الأساس بشر لهم أحاسيس ومشاعر ؛وإن اختلفوا عن البقية في قدرتهم على التعبير عنها .

وقد عبر الشعراء الليبيون عن لحظات الاغتراب في صور فنية رائعة استلهموا التراث في بعضها.

المراجع والمصادر:

1- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر،عبدالحميد جيدة ، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع-طرابلس-لبنان-1986م.

2- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس ،عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت-1398ه-1978م.

3- الاغتراب – شاخت؛ ريتشارد- ترجمة: كامل يوسف- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- ط1- 1980م.

4- أكواخ الصفيح، لطفي عبداللطيف، منشورات دار مكتبة الفكر للطباعة والتوزيع والنشر؛ طرابلس؛ ليبيا؛1967م.

5- بنية القصيدة العربية المعاصرة ،خليل موسى منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق2003م.

6- الجحيم الأرضي، قراءة في شعر صلاح عبد الصبور؛ محمد بدوي؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛1986م.

7- الجواهري شاعر العربية، عبد الكريم الدجيلي، ج1، مطبعة الآداب ،12972م

8- حول إشكالية علاقة الكاتب العربي بالسلطة مجلة الناقد؛ العدد31؛ السنة الثالثة-يناير- 1991م.

9- دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، قادة عقاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق،2001م.

10- ديوان أحمد الفقيه حسن

11- ديوان أحمد رفيق المهدوي، ط1- وزارة العمل والشؤون الاجتماعية-المملكة الليبية-د.ت.

12- ديوان أشواق صغيرة،على الرقيعي ،د.ت.

13- ديوان السور الكبير،خالد زغبية ، منشورات الشركة العامة والتوزيع والإعلان ، ط1979،3م

14- ديوان بشر ابن أبي خازم ،تح: عزة حسن؛ دار الشرق العربي، بيروت لبنان، حلب- سوريا،1995م.

15- ديوان بعد الحرب ، حسن محمد صالح،د.ت

16- ديوان طرفة بن العبد ،تح،محمد نصر الدين ،دار الكتب العلمية2002م.

17- ديوان علي الفزاني ،المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة .

18- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ،لأبي العلاء المعري،تح: عبد المجيد دياب ج4،ط2- دارالمعارف،مصر،1413ه،1992م،

19- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المؤلف: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: 573هـ) تح، د حسين بن عبد الله العمري وآخرون ، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م .

20- في البدء كانت كلمة ،رجب الماجري، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي- ط1-2005م.

21- لغة الشعر بين الإحيائيين والرومانسيين في ليبيا؛ عادل الصاري؛ رسالة دكتوراه؛ كلية الآداب؛ جامعة دمشق؛ 1429ه-2008م.